مواسم الحجاز

وتسهيلها سبل اللهو في العصر الاموي *

بقلم جبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

كانت هناك مواسم في الحجاز سهلت على شباب ذلك العصر سبل اللهو وساعدتهم على الالتقاء بالمرأة، والتقرب اليها والتعرض لها، سواء أكانت حرة او أمة، شريفة او وضيعة. وقد نال المرأة بسبب هذه المواسم حظ من الحياة مع غير زوجها او ابيها او اخيها او قريبها، فتعرفت الى الشاب واجتمعت به، وحادثته وحادثها، واحبته واحبها، واستمعت الى شعره فيها ان كان شاعراً، واسمعته نقدها ورأيها في هذا الشعر.

وكانت هذه المواسم، بالوقت نفسه، مدعاة الى تطور الحياة الاجتماعية عند اهل ذلك الجيل، بحيث اخذ الكثير منهم يفهم الحياة على غير الوجه الذي كان يألفه من قبل، كما انها ساعدت على ترقية الحياة الادبية عند العرب.

المدينة والعقيق

لم يكن التطور الذي طرأ على الحجاز بالشيء اليسير، ولقد نال المدينة، فيما يظهر لنا، اكبر نصيب منه. ذلك انها كانت مركز الخلافة لدولة الراشدين، فتحدر اليها اكثر الفيء، واكثر الرقيق والسبي. وتقع المدينة على سهل تحيطه من بعض جهاته ارض حمراء بركانية. غير ان تربته في الجهة الجنوبية مشبعة من المياه التي يندر وجود مثلها في سائر الحجاز. وتظهر هذه المياه وتكثر بعد نزول الامطار وتحدر السيول، وتتوفر بعض مياه الامطار والسيول تحت سطح الارض، وتستقر في جوفها[1]. ومن هنا نستطيع فهم

* فصل من كتاب في «عصر عمر بن ابي ربيعة»: مظاهره السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سيظهر قريباً في المطبعة الكاثوليكية.

١) ياقوت ٤: ٥٠٩ وبول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina

سبب كثرة الآبار في المدينة ، واستعمالها لسقي الزرع.

وينبت في تربتها المخصبة انواع كثيرة من الاشجار المثمرة ، اهمها النخيل. ومناخها ، على مـا في صيفها من حرّ وشتائها من برد ، خير من مناخ مكة ؛ وهي تفضل مكة من حيث المزروعات والاثمار ايضاً . وقد اصبحت ، بعد انتقال الخلافة الى دمشق ، موطناً للكثيرين من هؤلاء الذين رغبوا عن السياسة الى الهدوء والراحة والدعة[1]. فقد رجع اليها الحسن بن علي بعد ان بايع معاوية[2]. وفيها اقام عبدالله بن جعفر كما هو مشهور[3]. وفيها اقام الصحابة المهاجرون ، اول الاسلام ، فبقيت بعدهم اكثر عائلاتهم . واليها انتقلت كما سترى عائلة عبدالله ابن ابي ربيعة ، والد شاعرنا ، فولد عمر ونشأ فيها فيها تزوج وفيها اقام ابن ابي عتيق[4] ، والحسن بن الحسن بن علي[5] ، وابن علي من الحنفية[6] ، وسعد بن ابي وقاص[7] ، وغير هؤلاء حتى قيل انه كان فيها ، قبل فتنة ابن الزبير ، من بني أمية واحلافهم خلقٌ كثير ، رووا انهم اكثر من ثلاثة آلاف[8]. وقد اجلى ابن الزبير بعضهم الى الشام[9] ، وظلوا يحنون الى الحياة فيها[10]. وهكذا اصبحت المدينة ، كما ذكرنا ، موطناً لطبقة كبيرة من الناس ممن آثروا حياة الهدوء والدعة على الحرب والاشتراك في الخصومات السياسية ، بحيث استطاعوا فيما يقول بُول (Buhl) ان يتمتعوا وهم مطمئنون بهذه الثروة الكبرى التي تحدرت اليهم اثر الفتوحات[11] ، وانتهى ببعضهم الترف في العيش الى شيء عظيم من اللهو والمجون والعبث[12] ، بحيث ذكر الطبري ان مروان الاخير ، رأى احد رجال المدينة ممن خرجوا عليه في ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ. فقال له : « يا فاسق ، اما كان لك في خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن

---

١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina

٢) الطبري II : ٦ والدينوري ٣٢٢ ٣) الاصبهاني ١١ : ٦٨، ٦٦، ٧٠ وراجع فهرس الاغاني للگويدي تحت عبدالله بن جعفر ، وابن عبد ربه ١ : ١٤٥

٤) الاصبهاني ٨ : ١٠ و ٧ : ١٢٢ ٥) الاصبهاني ٢ : ٦٣–٦٤

٦) الدينوري ٣٠٨ ٧) المسعودي ٤ : ٣٥٤

٨) الاصبهاني ١ : ١٤ ٩) الاصبهاني ١ : ١٤ ١٠) الاصبهاني ١ : ١٥

١١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina ١٢) الاصبهاني ٢١ : ١٧٦

الخروج معه . فقاتلني ؟» قال: «يا امير المؤمنين، اكرهني، فانشدك الله والرحم!» قال: «وتكذب ايضاً ؟ كيف اكرهك ، وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك في عسكره ؟ »[1].

وقد ذكر الاصبهاني ان الفرزدق كان يقيم فيها ويختلف الى بيوت القيان[2]. وروى ان مروان بن الحكم، عاملها لمعاوية ،انكر عليه هذا ، ثم لقيه ، فقال له :

قل للفرزدق ، والسقاهة كاسمها ان كنت تارك ما نهيتك فاجتنب
ودع المدينة انها مذمومة واقصد لمكة او لبيت المقدس[3]

عصر المدينة الذهبي

ولعل هذا العصر كان عصر المدينة الذهبي الذي تغنت بامجاده الشعراء وتتذبذ ، من جمال في الرياض المحيطة بالمدينة ، الى لين ودعة في العيش ، الى غنى ومال عظيم ، الى تساهل من قبل رجال الحكم ولعلك التفت الى هذه النواحي الجديدة في حياة اهلها في ذلك العصر، من اتخاذ بعضهم غرفة خاصة ، جعلها نادياً ، يتردد الرجال اليها ، فيها من الالباب الوان كثيرة، ومن ضروب التسلية طائفة كبيرة . ومن تردّدهم ايضاً الى حفلات الغناء ؛ فقد كانت تعقد فيها ، كما رأيت ، حفلات كثيرة للغناء ، منها عامة ومنها خاصة ، كان يلبس المغنون في بعضها ، كما روي ، لباساً خاصاً.

ولقد كانت هذه المراسم الغنائية التي تعقد في المدينة مقصد الكثيرين من طلاب اللهو ، لا سيما من اهل مكة . ولنا ، في اخبار بعض شعراء مكة وشبابها من اهل المرح واللهو ، ما يفيد انهم كانوا يقدمون خصيصاً لحضور مثل هذه الحفلات الغنائية[4].

وكان صاحبنا عمر من اكثر الناس تردداً لمثل هذه الحفلات،وهو في المدينة ، ثم لم يفته ، بعد ارتحاله عن المدينة ، ان يقصد اليها لحضور هذه الحفلات الغنائية[5].

---

١) الطبري II : ١٦١٠ ٢) الاصبهاني ٢١ : ١٦٧
٣) الاصبهاني ٢١ : ١٦٧ ٤) الاصبهاني ٧ : ١٢٥ ٥) الاصبهاني ٧ : ١٢٥

العقيق

ولقد كان هناك في المدينة موضع خاصٌ ، لعله كان اكثر مواضعها حظاً من حياة اللهو والعبث والمرح والطرب ، و كان لصاحبنا عمر ايضاً فيه حظ كبير. ذلك هو العقيق ، وادي المدينة البهيج ، ومتنزه اهلهـا ، ومزار الكثيرين من طلاب اللهو من سائر مدن الحجاز.

يبعد اول العقيق عن المدينة نحو ميلين او ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية[1]. وتتحدر اليه السيول الهابطة من الجبال حوله ، فتجعل فيه نهراً كبيراً يضطرب في بعض الاحيان مثل مدّ الفرات[2] – ترمي اواذيّه العبرين بالزبد – ثم يهوي على الجنائن والبساتين ، فيسقي نخلها ، ويروي روضها ، وينعش نفوس هؤلاء العرب هناك من اهل المدينة وما جاورها الذين خلا قطرهم من الانهار ، فما هو الا ان يسمعوا ان العقيق قد سال حتى تراهم ، وقد هرعوا اليه افواجاً افواجاً ، رجالاً ونساء ، يتمتعون بمنظره البهج ، وينفرد بعضهم ليستحم بمائه ، ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياضه حلقات الانس والطرب ، فيستنشدون الشعراء فينشدونهم من شعرهم ، ويلتمسون المغنين فيسمعونهم من عذب انغامهم ، بينما يتروي غيرهم تحت نخيله يشربون ويعبثون[3].

العقيق وملذات اللهو فيه

ذلـك هو العقيق متنزه اهل المدينة في ايام الربيع والمطر ، فيما يقول ابو الفرج[4]. فهو بروعته وجماله المنعم الاخاذ يجذب اليه هذه الجماهير من اهل المدينة واهله ، فينتشرون على اراضيه ينعمون بالجمال الذي يحيط بهم. كل في لهوه ، فترى نفراً من المغنين اندفعوا يتغنون ، فاجتمعت عليهم نساء اهل الوادي حتى صار مراحهم كمراح الضأن. ويرى ابن عائشة ذلك ، فيلتفت الى صاحب معه ويقول :

---

١) ياقوت ٣ : ٧٠٠ Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت 'Akik

٢) الاصبهاني ٢ : ١٧٣

٣) الاصبهاني ٧ : ١٢٠ ، ١٤ : ٧٦ و Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت 'Akik

٤) الاصبهاني ٢ : ١٧٣

«اما والله لافرقن هذه الجماعة». ثم يأتي قصراً من قصور العقيق ، فيعلو سطحه ، ويلقي رداءه ، ويتكىء عليه ، ويغني :

هذا مقام مطرد هدمت منازله ودوره

فلا يقضي صوته حتى تحتشد النساء اليه ، فلا تبقى امرأة منهنّ الا جلست تحت القصر ، فيقول المغنون في الحلقة الاولى: «هذا عمل ابن عائشة وحده»[1].

او ترى المواكب يسير فيها ارستقراطيو ذلك البلد ، من رجال تحفّ بهم حاشيتهم ، الى نساء تحفّ بهنّ جواريهن ؟ فهنا عبدالله بن جعفر يتنقل بين حلقات المغنين يجبو هذا ويكسو ذاك[2] ، وهناك مركب سكينة وهي خارجة من قصرها بالعقيق لتغتسل بماء واديه[3].

او ترى نصيباً وكثيّراً والاحوص يركبون افضل ما يقدرون عليه من الدواب ، ويلبسون احسن ما يقدرون عليه من الثياب ، ويسيرون متنكرين. ثم يتصفحون هذه الحلقات والجماعات في العقيق ، يرون بعض ما يشتهون ، حتى يرتفع لهم سواد عظيم فيأمونه حتى ياتوه ، واذا وصائف ورجال من الموالي ، واذا نساء بارزات ، فيسألون النزول وينزلون ، واذا كراسي موضوعة فيجلسون ، جميعاً في صف واحد ، يستمعون الى بعض الجواري وهي تغني بشعر نصيب احدهم[4].

او ترى صاحبنا عمر خارجاً اليه ، وقد واعد نسوة من قريش الى موضع فيه يتحدث معه ، وترى بجانبه مغنيه القريض يساعده على لهوه ، ويمسك معه بطرفه وبرديه ليظلّا على صاحباته حتى يستترن من سقوط المطر[5].

او ترى ابا السائب المخزومي ليلةً ، بعد ما وقد السامر ، يأتي صديقاً له ليستصحبه الى العقيق ، فيذهبان ويتحدثان ويتناشدان حتى يسمع ابو السائب صديقه ينشد للعرجي :

باتا بانعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالاغرّ الاشقر
فتلازما عند الفراق مبابةً اخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

١) الاصبهاني ٦ : ١١٥ ٢) الاصبهاني ١١ : ٦٧ و ٢ : ١٧٣
٣) الاصبهاني ١٤ : ١٧٣ ٤) الاصبهاني ١ : ١٤٣
٥) » ١ : ٦٦

فيقول: «اعده علي»، فيعيده. فيقول: «احسن! والله امراته طالق ان نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته.» ويلاقيه احد احفاد علي، فيسلم، ويسأله: «كيف انت؟» فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

ويلقاه آخر ويكلمه، فيردد له هذا البيت، حتى خشي السامع ان يكون به جن وخاف عليه ان يتهور ببعض آبار العقيق[1]. او ترى ما هو اغرب من هذا كله طبقة خاصة من اهل ذلك الوادي سمتهم الكتب العربية باسم خاص «المخنثين»، مخنثي العقيق. وضرب برتتهم ونعوتهم او بالاحرى تخنثهم المثل حتى قيل: اي بيت من الشعر تعدله كانه اعرابي في شملته ونصفه الآخر كانه اعرابي مخنّث مفكك؟ فقيل: قول جميل:

الا ايها الركب اليمام، الا هبوا! اساتلكم: هل يقتل الرجل الحب؟

وقيل: كأن الشطر الثاني من مخنثي العقيق يتقصف تقصفاً[2]. كل في لهوه يجمعهم السرور في صعيد واحد تصدح في اكثر ارجائه انغام الموسيقى المطربة والاصوات العذبة حتى ليبدو الوادي انه بقعة خلت من كل الآلام واكتست ابهى الحلل وهنئت باحلى الاحلام.

مرآة الغيب

ولست اعلم في كل العالم العربي الآن موضعاً يشبهه لا من حيث المنظر الطبيعي، من ماء جار فياض، وروض معشب انيق زاهر، وجنات غناء يدنه اعالي اشجارها «مرّ الرياح النواسم»، لا! فان في القناطر الخيرية على ضفاف نيل مصر ما يفوق اجمل متنزهات العالم العربي من هذا القبيل منذ عرف العرب حتى الآن، ولكنني أشير الى تلك الناحية من حياة العرب الاجتماعية والادبية فيه، الى تلك الالوان من اللهو والعبث والمرح، الى ذلك الغناء تعقد حوله الحلقات كما رايت، الى تلك المجالس الادبية يشيع فيها الناس الى ما تنتجه قرائح شعرائهم والى ما يحوكه بيان محدثيهم. ولو حاولنا التوسع قليلاً في

١) الاصبهاني ١: ٨: ١٥١-١٥٦ ٢) الاصبهاني ٣: ١٨٣: ٧ و ٨٦: ٧ و ٩١

البحث عما يشبه العقيق الآن ، او ما كان يشبهه ، لالفينا مواضع متعددة ، ولكني اشك في اننا نقع على ما يشبهه من هذه الناحية من الحياة الادبية ، او على ما يشبه هذا الاثر الذي كان يتركه العقيق في نفوس اهليه وزواره .

لا تذكر لي دفنة انطاكية التي شبهوا العقيق بها[1] ، ولا تقل شيئاً عن لهو الرومان فيها ، وان شابهت العقيق او فاقته في مائها وحماماتها وقصورها ومتنزهاتها واشجارها من دفن وسرو ، وان اتفق اهلها وارستقراطيو الحجاز بثروتهم وكلفهم وترددهم اليها ! اقل لك ما رواه المؤرخ ممسون عن المترددين اليها : « ان شجر السرو في انطاكية كان يعرف ان يهمس بينما كان رجالها لايعرفون كيف يتكلمون »[2] . اما العقيق فلم يكن بجزير مياهه وتقابل نخله ورقة نسيمه وضروب لهوه ، يقابل بظرف نصيب وحديث ابن ابي ربيعة وشعر الاحوص وادب عائشة وسكينة بل يكاد يكون في هؤلاء وحدهم غنى عن العقيق .

ويكفي اذا شئت ان تعلم اثر هذا العقيق في نفوس شعرائهم ان تقرأ شعر ابي قطيفة فيه ، فقد زعموا انه كان اموي الهوى ، فاجلاه ابن الزبير عن المدينة ، فارتحل الى الشام ، فلم تنته رياض الشام ومتنزهاتها عن العقيق ، واندفع ينشد حنينه اليه :

ليت شعري ! هل البلاط كمهدي والمصلى الى قصور العقيق ! [3]

وقال من قصيدة اخرى :

الا ليت شعري ! هل تغير بعدنا قباء ، وهل زال العقيق وحاضره ! [4]

وقال ايضاً :

ليت شعري ! وابن مني ليت اعلى العهد يابن فبرام
ام كمهدي العقيق ام غيرته بعدي الحادثات والايام !

الى ان يقول :

وتبدلت من مساكن قومي والقصور التي بها الآطام

---

١) لامنس – الموسوعة الاسلامية – تحت Akti؛
٢) ممسون ٢ : ١٤٤ ٣) الاصبهاني ١ : ١٥
٤) الاصبهاني ١ : ١٥

ثم يقول :

اقطع الليل كله باكتئاب وزفير ، فما اكاد انام
غير قولي اذ فرقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الاحلام (١

وكان في العقيق ساحات تسمّى بالعرصات ، منها عرصتان قال عنهما ياقوت انهما من افضل بقاع المدينة واكرم اصقاعها وروى ان ذوي السلطان من بني امية منعوا بناء المنازل فيها صوناً لها ، وضناً بها ، وان سلطان المدينة لم يكن يقطع بها قطيعة الا بامر الخليفة[٢].

وقال بعض المدنيين في احدى عرصات العقيق.

وبالعرصة البيضاء ، اذ زرت اهلها ، بها مهلات ما عليهنّ سائس
خرجن لحبّ اللهو ، من غير ريبة ، عفائف ، باغي اللهو منهن آئس
يردن ، اذا ما الشمس لم يخش حرها ، خلال بساتين خلالهن يابس
اذا الحر آذاهن ، لذن بجرّة ؛ كما لاذ بالظل الظباء الكوانس (٣

وكان في الحجاز مواسم غير موسم المطر والربيع في عقيق المدينة، منها موسم المصيف في الطائف ، فلننتقل اليه.

الطائف

ولقد كانت الطائف ، احدى المدن الثلاث التي كان يعيش فيها ، او يتردد اليها ، ابن ابي ربيعة ، حتى زعموا انه كان من اعلم الناس بامورها ، وذكروا انه لما قدم الوليد بن عبد الملك مكة ، سأل عن رجل له علم باموال الطائف ، فقالوا : عمر بن ابي ربيعة ، قال : لا حاجة لي به. ثم عاد فسأل ، فذكروه له ، فردّه . ثم عاد فسأل ، فذكروه ، فقال: هاتوه ، فركب معه يحدثه[٤] .

الطائف مصيف

وتقع الطائف الى الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلاً[٥]،

١) الاصبهاني ١ : ١٥٠ ٢) ياقوت ٣ : ٦٤١
٣) ياقوت ٣ : ٦٤٢ ٤) الاصبهاني ١ : ٥٠ و ٢ : ١٤٥ و ٥ : ٢١٤
٥) بركهارت ٦٦ ويذكر مراحل النهار ، وهو احد اعضاء البعثة العلمية الى الحجاز في ربيع سنة ١٨٠٤، في جريدة النهار عدد ٢٤٤ تاريخ ٦ حزيران سنة ١٩٣٤، ان المسافة ١٦٠ كيلومتراً.

وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة الاف واربعمئة قدم[1] . وقد اتخذها اشراف الحجاز في ذلك العصر مصيفاً لهم ، كما لا يزالون يفعلون في هذا العصر . ذكر فيلبي انه في زيارته لها آخر الحرب الكبرى رأى الكثيرين من اعيان مكة ونبلائها يصيفون فيها ، بحيث قال : ان عدد سكانها في الصيف بلغ العشرين الفاً ، بينما لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة الاف[2] . وهي خير مصيف ، فمناخها جميل وهواؤها عليل وماؤها عذبٌ جارٍ واشجارها كثيرة واثمارها وفواكهها طيبة متنوعة ، ففيها العنب والتين والرمان والمشمش والتفاح والدراقن والسفرجل والموز وغيرها من الفواكه[3] . وفيها وفي جوارها مزارع كثيرة وحقول خضراء يقع بعضها على الطريق بينها وبين مكة[4] . ويقول بركهارت عن بعض هذه المزارع : انها اجمل بقعة في الحجاز ، وابهج موضع شاهده في طريقه الى الحجاز بعد تركه لبنان[5] .

ويقول ياقوت عنها : « انها ذات مزارع ونخل واعناب وموز وساير الفواكه ، وبها مياه جارية واودية تنصبّ منها الى تيالة . » ثم يقول : « وفي اكتافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، واما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ، ربما جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه اهل مكة منها »[6] .

ولعل القارئ لا يزال يذكر ما روينا عن بيادر الزبيب التي رآها فيها سليمان ابن عبد الملك ، وقد روي انه قال : « لله در قيمي باي ارض وضع سهامه واي ارض مهد عشّ فروخه »[7] . وروي ايضاً انه دخلها هو ونفر معه ، فرأى بستاناً

---

١) لامنس – في الموسوعة الاسلامية – تحت Ṭāʾif ٢) فيلبي ١٩٣

٣) ياقوت ٣ : ٤٦٥ وفيلبي ١٩٣ وفي كتابه يذكر اكثر هذه الاثمار ويشير الى محلها اللذيذ .

٤) ياقوت ٣ : ٤٦٥ وبركهارت ٦٥ و٦٦ والفاكهي ٢ : ٧٦

٥) بركهارت ٦٥ وفيه يقول : « The village and neigborhood of Ras el Kora is the most beautiful spot in the Hedjaz, and more picturesque and delightful than any place I had seen since my departure from Lebanon in Syria. »

٦) ياقوت ٣ : ٤٦٦ ، ٧) ياقوت ٣ : ٤٦٧ .

لعمرو بن العاص، فجال فيه ساعة، ثم قال: «ناهيكم بها لكم هذا مالاً»[1].

وفي بعض الاساطير العربيـة ان الطـائف كانت قرية بالشام فنقلت الى الحجاز[2].

في هذه البلدة ـ كما اشرنا ـ كانت تصيف اشراف الحجاز من اهل مكة والمدينة[3]. وقـد ابتنى بعضهم دوراً او قصوراً يقضون فيهـا فصل الصيف. ذكروا ان معاوية كان يتول اغبط الناس عيشاً «ولاي سعد. وكان يلي اموالـه بالحجاز، ويتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة[4].

وقـد كانت زينب بنت يوسف ـ اخت الحجاج ـ فيما يظهر من شعر النميري، تشتو بمكة، وتصيف بالطائف[5].

وكانت عائشة بنت طلحة بعد ان تأيمت تخرج الى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه، وتجلس بالعشيات، فيتناضل بين يديها الرماة[6].

وكذلك كانت الثريا صاحبة عمر تصيف بالطائف[7]. وقد كلفته ذات مرة عناء عظيماً تكبده في سيره اليها من مكة، وقد احتالت على استقدامه اليها بطريقة سنعرض لها في حينها[8]. وكان عمر اذا لم يستطع زيارتها يغدو كل غداة على فرسه، يسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطـائف الى مكة عن الاخبار قبلهم[9]. حديثه او حديث عنه!

الطائف موطن لهو

وكانت الطائف قبل الاسلام، فيما يظهر من بعض المصادر، بلد فجور وفسق حتى زعموا ان النبي عندما صالح اهلها اشترط عليهم ان لا يزنوا ولا يربوا. ويقول

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٥ ٢) ياقوت ٣: ٥٠٠

٣) لامنس ـ الموسوعة الاسلامية ـ تحت Ṭāʾif ويذكر ان الطائف بعد الفتوحات الاسلامية والتوسع صارت تابعة لمكة، واديل من كلا البلدين، وحطّ من مكانتهـا وصارت الزعامة والسنة والرخاء في المدينة، غير ان اهل الطائف استطاعوا بمتهم ان يجعلوا من جبالهم معيناً ليس للسكين فحسب، بل لاهل المدينة ايضاً، وبهذا اقالوا من عثرة بلدهم، ورفدوا من ثرائها.

٤) ياقوت ٣: ٥٠٠ ٥) ياقوت ٣: ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٢٤

٦) الاصبهاني ٦: ٣٠ ٧) الاصبهاني ١: ٨٩ والبغدادي ١: ٢٢٨

٨) الاصبهاني ١: ٨٥ ٩) الاصبهاني ١: ٨٥ -

ياقوت: وكانوا اهل زنا وربا[1]. وربما كان اهلها ايضاً اصحاب شراب لان ارضهم كثيرة الكرمة، وقد عرف عن بعضهم ذلك[2].

هذا، وقد كانت بعيدة الى حدّ ما عن انظار العمال والولاة في المدينة او مكة بعد الاسلام بحيث استطاع من يرغب في اللهو ان يمارسه بعيداً عن اعين الرقباء، وقد كان بعدها داعياً الى ان تكون مركزاً لهؤلاء الذين يُنفون من مكة والمدينة، او الذين يهربون من غضب سلطان بني امية وغيرهم. والرواة يحدثوننا ان الفريض المغني التجأ اليها مدةً حينما بعث اليه الحارث بن خالد المخزومي يقول: لا ارينك في عملي[3]. وان ابن الزبير في خلافته نفى عبد الله ابن عباس اليها فتوفي فيها[4] ونفى اليها ابا العباس الشاعر الاعمى الاموي الميل[5]. وان سليمان بن عبد الملك منع ابن ابي ربيعة من الحج ذات مرة واخرجه اليها[6]. وان الوليد بن يزيد اخرج يزيد بن ضبة الى الطائف وسوغه ما له هناك ليبعده عن هشام بن عبد الملك، خوفاً من ان يفتك به، وسماه طريد الاحول، يعني طريد هشام[7].

ومن الناس من اتخذ مختاراً فيها لمدة ما، كما فعلت سكينة بنت الحسين حين غاضبت زوجها زيد بن عمرو[8].

ومهما يكن من الامر كله، فاننا نرى ان بعدها عن اعين الرقباء في ذلك العصر، مع ما احاطها وقتذاك من الظروف التي ذكرنا، يسّر لبعض اهل اللهو ان يمارسوه فيها، وغلا بعضهم في لهوه حتى عرف الفسق فيهم وليس ادل على هذا من حياة العرجي الشاعر احد حفداء الخليفة عثمان بن عفان، ويكفي ان تقرأ سيرته في الاصول المختلفة لتدرك ما نذهب اليه؛ وقد صدر شعره يمثل هذه الناحية من حياته اقوى تمثيل[9].

---

١) ياقوت ٣ : ٥٠٠
٢) ياقوت ٣ : ١٩٢ و ٦ : ٥٨
٣) الاصبهاني ٣ : ١٠٦
٤) اليعقوبي ٢ : ٢١٣
٥) » ٠ ١٥ : ٦٣
٦) المرزباني ٣٠٢ والاصبهاني ٨ : ٥٨ و ١٠ : ٦١
٧) الاصبهاني ٦ : ١٤٦-١٤٧
٨) الاصبهاني ١٢ : ٩٣
٩) اصبهاني ١ : ١٥٢-١٦٦

مكة ومواسمها

ولم تكن مكة، وهي البلدة التي عاش فيها صاحبنا اكثر حياته، وعاش فيها آباؤه واجداده من قبله؛ اقل حظاً في هذه الناحية من المدينة والطائف. تقع مكة في قلب الحجاز، في منخفض من الارض تحيط به بعض التلال. وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التي تتحدر من التلال حولها، ومن هنا نرى ان تاريخ مكة تكثر فيه اخبار السيول لاسيما تلك التي كانت تقع ايام الحج. وقد جاء سيلٌ عام ثمانين سمي بسيل الجحاف دخل المسجد، واحاط بالكعبة، وهدم الدور والشوارع على الوادي، فقتل الهدم ناساً كثيراً. ورقي الناس في الجبال واعتصموا بها، وقال بعضهم واصفاً خروج المخبئات يرقين الجبل:

لم ترَ عيني مثل يوم الاثنين اكثر محزوناً وابكى للعين
اذ خرج المخبئات يمين سوافداً في الجبلين يرقين (١)

وربما، لولا قلة الامطار، ولولا وجود الكعبة في بطن المنخفض، لكانت الناس هجرت بطن مكة واستقرت في اعاليها.

ومناخ مكة حار، ولهذا كان يلجأ الى مكة جماعات كثيرة من اهل الحجاز، ممن جاور مكة، او ممن كانوا بعيدين عنها كاهل الطائف او اهل المدينة، ايام الشتاء. فيتخذونها مشتى لهم بعد ان يكون بعضهم قد قضى صيفه في الطائف.

نشتو بمكة نسة ومصيفها بالطائف (٢)

وقال عمر في احدى صاحباته:

بالخيف منزلها ومسكنها وظل مكة، ان شتت، قصرا (٣)

وكان سعد مولى معاوية يشتو كذلك بمكة ويتقيظ الطائف(٤)

ولا يخفى ان الكعبة بنيت قبل الاسلام، في ذلك المنخفض، وان عائلات

١) الازرقي ١ : ٢٦٥-٢٦٦
٢) ياقوت ٣ : ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٣٤
٣) ابن ابي ربيعة (ش) ٣٦
٤) ياقوت ٣ : ٥٠٠

كثيرة من قريش استقروا حولها ، ويعرفون بقريش البطاح بينما يعرف الذين استقروا في ظواهر مكة بقريش الظواهر .

وقد كان للبلدة تاريخ تجاري عظيم الشأن ، وكان لاهلها رحلات تجارية ، شتوية وصيفية أشار الى بعضها القرآن : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هـذا البيت الـذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ».[1]

وكانت تذهب القوافل الى مختلف الجهات حولها،ناقلة بضائع القطر الواحد الى القطر الآخر، بحيث كانت تبلغ بعض القوافل نحو الفين وخمس مئة جمل،ويكون فيها ما بين المئة والثلاث مئة رجل[2]،وكانت بعض بضائع الهند والصين واليمن والحبشة من محمولها حتى اذا ما وفدت بهذه البضائع الى سوريا ، عادت حاملة بضائع بلاد البحر المتوسط من قطن وثياب مصبوغة وسلاح وحبوب وزيت[3].

وكان من اعظم تجارها قبل الاسلام ، وفي صدره ، عبد الله بن ابي ربيعة والد صاحبنا عمر .وسنعرض للبحث في غنى هذا البيت عند تصدينا لدرس حياة عمر .والذي يهمنا الآن ان هذه الحياة التجارية قد انمت ثروة المكيين ، ورفعت من شأن بلدهم ، بحيث استطاع الاب لامنس ان يقول في مقالته في الموسوعة الاسلامية عن ثروة مكة، مؤيداً ونكلر في انها تقابل بثروة تدمر، ما نصه :

« The 30,000 dinârs invested by the one house of Abû Uhaiha in the Badr caravan suggests that H. Winckler is quite right when he tells us to think of the Palmyra of Zenobia if we wish to get an idea of the financial capacity of Mecca ».(٤)

ولقد اخذت مكة بسبب آخر ساعد على انماء ثروتها ، هو وجود الكعبة فيها ، وكانت حجاً لكثير من العرب قبل الاسلام . ولحسن حظ مكة اقر

---

١) القرآن – قريش – ١٠٦

٢) لامنس – الموسوعة الاسلامية – تحت Mecca

٣) « « « « « « «

٤) « « « « « « «

الاسلام هذا الحج، على وجه خاص، وبشروط خاصة، بحيث كان القيام به امراً واجباً على كل من استطاع اليه سبيلاً. ومع ان المدينة قد انتزعت الزعامة من مكة فصارت مركزاً للخلفاء الاول ، وانتقلت اليها جماعات كثيرة من زعماء مكة واغنيائها، فان مكة بقيت صاحبة الحق في ان تكون اليها الحجة، وان يكون اليها مجتمع الحجيج من مختلف الاقطار ، فاستعاضت بهذا عن بعض ما فقدته في تحول مركز السيادة الى المدينة.

مواسم الحج

نريد ان نصل من هذا كله الى الالتفات الى هذه المواسم — ايام الحج — التي كان لها اثر كبير في الحياة الاجتماعية في مكة ، وبالتالي في الحياة الادبية عند اكثر الشعراء الذين كانوا يشهدونها ، وبنوع خاص في حياة صاحبنا وشعره.

ولا يهمني في هذا الصدد درس تاريخ هذه المواسم ومنشئها ، ولا التعرض الى ذكر الشعائر الدينية التي كانت تقام فيها ، وكيف كانت تقام ، وجلّ ما اقصده هو التوصل الى كيف استغلّ طلاب اللهو من شباب الحجاز ، فتياناً وفتيات هذه المواسم ، فرحوا ما امكنهم المرح وطربوا ولهوا وعبثوا .

قال ابن فضل الله العمري في ايام منى: «منى حيث ترمى الجمرات ، وتهمل العبرات ، ذوات الليالي المقمرات ، والايام التي سلخ من الكافور ثياب عشاياها المقبرات ، يحلى بها من كل ترب عاطله، ويلتقي في كل سرب كل ذي دين وعاطله، فيها مجمع الحجيج ، والمحصب منها موضع الجمرات ، يجتمع فيها الخليطان ايام الموسم ، من شام ويمن ، وكانت في قديم الاسلام موسم لقاء الحبائب، ومكان موعد كل مفارق . وثلاث ليالي منى معروفة موصوفة ، قد اكثر فيها الشعراء وترنم بها المتيمون.»[1]

---

١) العمري ١١٥

الشباب يتصدون للمرأة في الحج

وكان يحتشد في هذه المواسم خلق كثير من مختلف الاقطار التي خضعت للدولة العربية ، وكان اختلاط عظيم سهل لطلاب اللهو سبيلهم ، رووا ان ابن ابي ربيعة شاعرنا « كان يقدم ويتسمر في ذي القعدة ، ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ، ويتلقى المدنيات الى مرو ، والشاميات الى الكديد .»[1] وقد ذكروا عنه كما سنرى قصصاً كثيرة عن تعرضه للحجّاج ، او مواكبته لبعضهم ، ومرافقته اياهم حتى يفرغوا من طوافهم وينقضي الحج وتفترق الركبان ، فيشيعهم ويعود لينشد الاشعار في صاحباته وقد ربط مع بعضهن عهود الحب ، او ضرب مع البعض الآخر مواعيد اللقاء ، فما ينقضي لمره حتى تعاوده ذكريات الحج فينشد شعره فيها ، وهو يتشوّق الى الموسم الجديد حين يعود الى سابق امره .

وكثيراً ما كان يتعرض بعض الشبان الى النساء في الحج دون ان يكون لهم بهن سابق عهد او معرفة[2] . روى ابو الفرج ان احدهم رأى امرأة جميلة من قضاعة تسير مع رفقة الى مكة في الموسم ، فصحب قومها وكان يسايرها ويحادثها ، ثم خطبها الى نفسها ، فقالت : لا سبيل الى ذلك ، لانك لست لي بكفء ولا جار في بلدي ، ولا انا ممن تطمعه رغبة عن بلده ووطنه فلم يزل يحادثها ويسايرها حتى انقضى الحج ففرق بينها نزوعها الى اوطانها[3] .

وكان العرجي يتصدى للغانيات في المواسم مثل عمر ، وقد قال في احداهن :

اماطت كساء الخز عن حرّ وجهها ، وادنت على الخدّين بردًا مهلهلا

---

١) الاصبهاني ١ : ٨٨

٢) الدميري ١ : ٢٢٦ والاصبهاني ١ : ٢٧ و٦٥

٣) الاصبهاني ١٦ : ١٥٣

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ، ولكن ليقتلن البريء المغفلا

. . .

صريع الهوى ، لا يبرح الحب قائدي بشر ، فلم اعدل عن الشعر مبدلا
لدى الجمرة القصوى ، فريت وهلّلت ، ومن ريع في حجّ من الناس هلّلا (١)

ذكر ابو الفرج باسنادٍ قال: « قال عبيد الله بن عمر العمري: خرجت حاجّاً ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه ، فادنيت ناقتي ، منها ثم قلت لها: يا امة الله ، الست حاجة ، اما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت: تأمل يا عمي ، فاني ممن عنى العرجي بقوله :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال: فقلت لها فاني اسأل الله ان لا يعذّب هذا الوجه بالنار. قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: اما والله لو كان من بعض بغضاء اهل العراق لقال لها اعزبي قبحك الله ولكنه ظرف عبّاد الحجاز(٢)

وللعرجي هذا في احداهن واصفاً لقاءه بها ايام الحج :

ما نلتقي الا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النفر
الحول بعد الحول يتبعه ما الدهر الا الحول والشهر (٣)

ومهما يكن من امر هذه المواسم فالمحقق لدينا من شعر شعراء ذلك العصر ان النساء كنّ يمارسن اكثر هذه الطقوس الدينية في مواسم الحج مع الرجال ، وكانت الرجال تنتهز هذه الفرص للتعرض الى النساء فيتعرفون بهن ويتحدثون معهن سواء اكان وقت الطواف والعمرة او بعد الفراغ منهما وان كثيراً من هذا الشعر الذي تحدّر الينا من ذلك العصر والذي دار على الغزل، واقتصر على المرأة قد انتجته هذه المواسم التي ذكرنا وبالاخص موسم الحج ، حتى زعموا ان البعض من شباب الطبقة الارستقراطية في ذلك العصر لم يقصدوا من الحج وحضور تلك المواسم الا مقابلة المرأة والتعرض لها. قال العرجي :

١) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠
٢) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠-١٢١ و ١ : ١٦١
٣) الاصبهاني ١ : ١٦٣

اني اتيحت لي يمانية احدى بني الحارث بن مذحج
تلبث حولاً كاملاً كله لا تلتقي الا على منهج
في الحج، ان حجت، وماذا بني واهله، ان هي لم تحجج (١)

وكان لا بدّ من ان تتعرض المرأة امام نظر الرجل عند قيامها ببعض هذه الطقوس، وبنوع خاص عند استلام الركن او الحجر الاسود، حيث يكثر الزحام ويتدافع الناس لكي يصلوا اليه(٢)، ومع ان الازرقي يذكر ان عطاء ابن ابي رباح رأى امرأة تريد ان تستلم الركن، فصاح بها وزبرها، وقال: غطي يديك لا حقّ للنساء في استلام الركن(٣)، فاننا نرى في الباب نفسه، بل وفي القصة نفسها ايضاً، ما يفيد ان المرأة كانت تستلم الركن(٤). وروى ابو الفرج قال: «بينما عمر ابن ابي ربيعة يطوف بالبيت، اذ رأى عائشة بنت طلحة ابن عبد الله، وكانت من اجمل دهرها، وهي تريد الركن تستلمه، فهبت لما رآها، ورأته وعلمت انها قد وقعت في نفسه، فبعثت اليه بجارية لها وقالت: قولي له اتق الله ولا تقل هجراً فان هذا مقام لا بدّ فيه مما رأيت». فقال للجارية: اقرئيها السلام وقولي لها: ان عمك لا يقول الا حسناً(٥).

وقيل في موضع ثانٍ ان عمر لم يزل ينسب بعائشة ايام الحج، ويطوف حولها، ويتعرض لها، وهي تكره ان يرى وجهها، حتى وافقها وهي ترمي الجمار سافرة فنظر اليها، فقالت: اما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق. فقال:

اني واول ما كانت بذكرها عجب، وهل في الهوى من متعجب
نبئت النساء فقلت لست بمبصر شيئاً لهنّ ابداً ولا بمقرب
فتكلفن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها نساء الاخشب
اقبلت انظر ما زعمن وقلن لي والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تهادى موهناً ترمي الجمار عشية في موكب
غرّاء يمشي الناظرين بياضها حوراء في غلواء عين مسجب (٦)

ورووا ان رقية بنت عبد الواحد بن ابي سعد العامرية احدى محبوبات

(١) الاصبهاني ١ : ١٦٣
(٢) الازرقي ١ : ٢٢٦
(٣) الازرقي ١ : ٢٤٠
(٤) » ١ : ٢٤٠
(٥) الاصبهاني ١ : ٧٩-٨٠
(٦) الاصبهاني ١ : ٨٠-٨١

عبيد الله بن قيس الرقيات حجت. فطافت ليلة بالبيت ثم اهوت ، لتستلم الركن الاسود وتقبله ، وقد طاف عبيد الله بن قيس الرقيات ، وقد مولى عائشة بنت سعد بن ابي وقاص ، فصادف فراغها فراغها ، فاهوى ابن قيس يستلم الركن الاسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت اليه فنفحته بردنها فارتدع، وقال لغند: من هذه ؟ قال: أمَ لا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد . فقال ابن قيس :

من عذيري ممن يضنّ ببذو ل لنبزي عليّ عند الطواف

قالوا ولما نفحته بردنها فاحت منه رائحة المسك حتى عجب من في المسجد وكانما فتحت في المسجد لطيمة عطار ، وفي هذا يقول ابن قيس ايضاً :

سائلا فندًا خليلي كيف اردان رقيّه (١

ويذكر المسعودي انه بلغ خالدًا القسري (وهو والي مكة اواخر القرن الاول للهجرة) قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مشهد
وحبّذا اللاتي يزاحمنا عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد : اما انهن لا يزاحمنك بعد هذا ابدًا ، ثم امر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف(٢).

واذا لاحظنا ان خالدًا هذا كان والياً على مكة بعد ٩٢ هـ. ادركنا ان القرن الاول للهجرة — اذا صحت هذه الرواية — كاد ينسلخ، والرجال والنساء يطوفون معاً، والغريب ان خالدًا هذا كان — فيما سنرى عند درسنا اصدقاء عمر — رسولاً بين عمر وبين بعض صاحباته : ولعبيد الله في الثريا صاحبة عمر:

حبذا الحج والثريا ومنً بالخيف من اجلها وملقى الرحال
يا سليمان ان تلاقِ الثريا تلق عيش الخلود قبل الملال (٣

ولنصيب الشاعر ولكثير ولجميل وللاحوص وللحارث اشعار في هذه المواسم ، ليس هنا موضع ذكرها ، فلتراجع في مظانها.

---

١) الاصبهاني ٤ : ١٦٥-١٦٦ ٢) المسعودي ٥ : ٣١٦-٤٠٠
٣) الاصبهاني ١ : ٨٥

مواكب الشريفات من نساء ذلك العصر

والمهم ان نعلم ان النساء كنّ يدركن اهمية هذه المواسم عند هذا النفر من شبان العرب الارستقراطيين ، فكنّ يلبسن لها احسن الثياب ويتزين احسن الزينة وكانت الشريفات منهن يقدمن الى الحج بمواكب تستلفت الانظار تحفهن الجواري ذات اليمين وذات الشمال، ذلك كان شأن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ،وقريباً من ذلك كان شأن الكثيرات من شريفات ذلك العصر من حجازيات هاشميات او شاميات امويات او عراقيات عربيات ، وكن يتبارين في هذا الظهور روى ابو الفرج قال: استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج فاذن لها وقال: ارفقي حوائجك واستظهري، فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة ، اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت: ارى هذه عائشة بنت طلحة فسألت فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر اعظم من ذلك فقالوا: عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذا اي سننها ، ثم اقبلت كركبة فيها ثلاثة راحلة . عليها القباب والمراديج ، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وابقى[1].

وروي ايضاً ان عائشة حجت ذات مرة ، ومعها ستون بغلاً عليها المراديج والرحائل ، فعرض لها عروة بن الزبير فقال :

عائشَ يا ذات البغال الستين اكل عام هكذا تحجين

فارسلت اليه: نعم يا عُرَيَّة . فتقدم ان شئت ، فكفّ عنها[1].

وروي ايضاً انها حجت وسكينة بنت الحسين معاً ، وكانت عائشة احسن موكباً وثقلاً ، فقال حاديها :

عائشَ يا ذات البغال الستين لا زلت، ما عشت، كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ، ونزل حاديها فقال :

عائشَ هذه ضرّة تشكوك لولا ابوها ما اهتدى ابوك (١

١) الاصبهاني ١٠ : ٦٠

بعض النساء يرغبن في ان يذكرن في الشعر

وكان بين مواكب الحاجات من ترغب في ان ترى وتمدح، فكنّ لا يكدن يرجعن من الحج حتى تطير ابيات الشعراء في اطرائهنّ ومدحهنّ والتشبب بهنّ حتى لقد روى الرواة ان بعضهن كنّ يغضبن اذا لم يسمعن ان الشعراء قد شبّبوا بهن واطروهن وذكروا من محاسنهنّ ، قال ابو الفرج: ان بنتاً لعبد الملك حجت فكتب الحجاج الى ابن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها في شعره بكل مكروه ، وكانت تحب ان يقول فيها شيئاً ، وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج ، فلما قضت حجها خرجت ، فمرّ بها رجل ، فقالت له : من اين انت ؟ قال : من اهل مكة . قالت : عليك ، وعلى اهل بلدك لعنة الله . قال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : حججت ، فدخلت مكة ، ومعي من الجواري ما لم ترَ الاعين مثلهن ، فلم يستطع الناس عمر ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا . قال : فاني لا اراه الا قد فعل . قالت : فاتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير ، فمضى اليه ، فاخبره ، فقال : لقد فعلت ، ولكن احب ان تكتم عليّ ، قال : افعل . فانشده قصيدته :

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لي الاوصابا

وانشده قصيدة اخرى ، فعاد اليها الرجل ، فانشدها هاتين القصيدتين ، فدفعت اليه ما وعدته به[1] .

ولعمر فيها ، وفيه اشارة الى خوفه من الحجاج :

كدت يوم الرحيل اقضي حياتي لينني متّ قبل يوم الرحيل
لا اطيق الكلام من شدة الحز ن ودمعي يسيل كل مسيل [2]

الشعراء يرضون النساء

وكان الشعراء يعنون في ان يرضوا هؤلاء النساء . رووا ان عائشة بنت

---

١) الاصبهاني ٢ : ١٣٨ ٢) الاصبهاني ١ : ٧٨

طلحة حجت ، وكان الشاعر الحارث بن خالد المخزومي والياً على مكة لعبد الملك بن مروان ، وكان يهواها ، فارسلت اليه : اخر الصلاة حتى افرغ من طوافي . فامر المؤذنين ، فاخروا الصلاة ، حتى فرغت من طوافها ، وانكر اهل الموسم ذلك . هي تحج والناس تضج ، وهو لا يأبه لهم ، ولما بلغ الامر عبد الملك بعث اليه بعزله وأدّبه . فقال : ما اهون والله غضبه وعزله اياي عليّ عند رضاها عني[1] .

الغناء في الحج

ويحدثنا الرواة انه قد كانت تعهد في هذه المواسم سبلُ الطرب ، فهم يروون لنا ان الفريض المغني كان يعترض الحجاج بصوته ، وهم في حجهم ، فيصغون اليه[2] . وانه غناهم مرة :

ايها الرائح المجدّ ابتكارا قد قضى من تهامة الاوطارا

فاطرب الناس ودهشهم ، فقالوا : طائفة من الجنّ حجّاج[3] . وهم يحدثوننا ان ابن عائشة كان واقفاً في الموسم متحيراً ، فمرّ به بعض اصحابه ، فقال له : ما يقيمك هاهنا ؟ فقال : اني اعرف رجلاً لو تكلم لحبس الناس هاهنا ، فلم يذهب احد ولم يجيء ، فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال : انا . ثم اندفع يغني :

جرتْ سنحاً فقلت لها اجيزي نوى مشمولة فتى اللقاء

قال : فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدّت الابل اعناقها ، وكادت الفتنة ان تقع[4] . وهم يحدثوننا ان الابجر كان يقف بين المأزمين ، فيرفع صوته ، فيقف الناس له يركب بعضهم بعضاً ، وانه جلس في ليلة اليوم السابع من ايام الحج على قريب من التنعيم[5] ، فاذا عسكر جرّار قد اقبل في آخر الليل ، فاندفع يغني :

عرفت ديار الحي خالية قفرا . . . . . .

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٦١ ٢) الاصبهاني ٢ : ١٣٠
٣) » ٢ : ١٣٠ ٤) » ٢ : ٦٤
٥) موضع بمكة . راجع طبعة دار الكتب للاغاني ٣ : ٢٤٦

فلما سمعه من في القباب والمحامل ، امسكوا ، وصاح صائح : ويحك اعد الصوت[1] . وهم يحدثوننا ان ابن سريج كان يغني من الخشب من غداة النفر ، فيتردد الانين والحنين من الاخبية والمضارب[2] .

ولقد بلغ اللهو والغناء ايام الموسم مبلغاً ليس بيسير بحيث ان هشام بن عبد الملك امر الوليد بن يزيد ان يحج عاماً من الاعوام ليهتكه عند اهل الحرم، فيجد السبيل الى خلعه ، ورووا انه قد ظهر من الوليد اكثر مما اراد به هشام[3] .

وتردد الفرزدق الى الحجاز ، وشهد هذه المواسم ، فاتبع بعض سبل اللهو فيما يروون ، وقد استغل هذا جرير في هجوه له في اكثر من قصيدة . وقد قال رادًّا على قصيدة الفرزدق التي مطلعها :

« عرفت المنازل من مهدد »

زار الفرزدق اهل الحجاز فلم يحظَ فيهم ولم يحمد
واخزيت قومك عند الحطيم وبين البنيين والمرقد
وجدنا الفرزدق بالموسمين خبيث المداخل والمشهد[4]

وقال الفرزدق قصيدةً يمدح فيها هشاماً ويهجو جريرًا مطلعها :

الستم عائجين بنا لنا ترى البرصات او اثر الخيام

ثم توصل الى وصف ناقته فقال فيها :

الا تلفتين ، وانت تحتي ، وخير الناس كلهم امامي
متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوام

فقال جرير يرد عليه ، ويبتدع له سبباً لهذا التلفت :

تلفتُّ اخا تحت ابن قين حليف الكير والنفس الكهام
متى ترد الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كل عام[5]

ولم يفت الاحوص اذا حج ان يتبع بعض سبل اللهو ، وقد ذكر شيئاً عن عبثه ليلةً بمنى في شعر رفعه الى المغنين[6] .

---

١) الاصبهاني ٣ : ١١٥-١١٦ ٢) الاصبهاني ١ : ١١٥
٣) الاصبهاني ٣ : ١١٦ ٤) جرير والفرزدق ٢ : ٧١٨
٥) جرير والفرزدق ٢ : ١٠١٦ والبيتي ١ : ١٠٠ ٦) الاصبهاني ١ : ٦

وليس خافياً ، بعد كل ما ذكرنا ، اثر هذه المواسم في حياتهم الاجتماعية والادبية ، وسنرى ان عمر لم يفته ان يخلد في شعره شيئاً من صورة تلك الحياة البهجة زمن المواسم في الحجاز ، وهو القائل فيها :

فلم ارَ كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج افتن ذا هوى (١

وهو القائل ايضاً في عائشة بنت طلحة :

اني داول ما كلفت بحبها عجب وهل في الحي من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمعتر شبهاً لها ابداً ولا بمقرب
وتقد تركن حزازة في قلبه منها بحق او حديث المعرب
فكففن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها لقاء الاخشب
اقبلت انظر ما زهين وقلن لي والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تخادى موهناً ترمي الجمار عشية في موكب
غراء يمشي الناظرين بياضها حوراء في غلواء عيش معجب (٢

وقال في احدى صاحباته :

حي الرباب وترجها اسماء قبل ذهابها
ارجع اليها بالذي قالت يرجع جوابها
عرضت علينا خطة مشروقة برضابها
وتدلت عند التاب ذرحباً بتابها
تبدي مواعد جمة وتضن عند ثوابها
ما تلتقي الا اذا نزلت منى بنجابها
في النفر او في ليلة الـ تحصيب عند حصابها (٣

ولعلّ الرواة قصدوا الى ان يميتوه بسبب بعض هذه الآثام التي كان يرتكبها ايام الحج ، فزعموا انه رأى امرأة بالطواف ، فذكرها بشعره ، فدعت عليه فمات في دعوتها فيما يزعمون !

١) ابن ابي ربيعة (ع) ١٦ وفيه افتن في موضع افتنّ
٢) عمر الديوان مصر (٣٤) ٣) عمر الديوان مصر (٥١)